الفصل الثالث

اتجاهات معاصرة
في علم النفس

أولاً : الاتجاه المعرفي في دراسة السلوك الإنساني.

ثانياً : الاتجاه الإنساني في علم النفس.

ثالثاً : نحو اتجاه إسلامي لدراسة الإنسان.

أولاً: الاتجاه المعرفي في دراسة السلوك الإنساني

تعريف علم النفس المعرفي Definition of Cognitive Psychology

ما هو علم النفس المعرفي ؟ إذا سألت عدداً من علماء النفس هذا السؤال فمن المحتمل أن لا تحصل دائماً على نفس الإجابة، سوف يحاول بعضهم وصف علم النفس المعرفي بأنه مختلف عن الاتجاهات الأخرى في علم النفس ، كما في الاتجاه السلوكي أو اتجاه التحليل النفسي. في حين يتجه البعض لاستعراض الموضوعات العامة التي يدرسها علماء النفس المعرفيين بشكل عام مثل: الذاكرة ، والإدراك وحل المشكلات ، والتعليم ، وغيرها من الموضوعات في الوقت الذي سيتجه البعض الآخر لعرض الأطر النظرية التي تمثل اهتمام علم النفس المعرفي. ومن أهم هذه الأطر مايسمى بنموذج تجهيز المعلومات والذي يرى الإنسان باعتباره مجهزاً للمعلومات.

وبالرغم من تعدد الإجابات إلا أن معظم علماء النفس المعرفي سيوافقون على تعريف علم النفس المعرفي : بأنه التحليل العلمي للعمليات العقلية وأبنية الذاكرة للإنسان وذلك بهدف فهم ذلك السلوك.

ويقصد بالتحليل العلمي Scientific Analysis: في هذا التعريف أن علم النفس يعتمد على الطرق العلمية فقط هي التي يمكن أن تستخدم.

وهذا يعني – على سبيل المثال – أن البيانات التي نستخدمها يجب أن تكون ممثلة للمجتمع Public بمعنى يحصل أي باحث على نفس البيانات إذا ما أتبع نفس الإجراءات . ولذلك فأي حدس حول كيفية عمل عقلك سوف لا يكون مبدءاً مقبولاً في علم النفس المعرفي إلا إذا استطعت أن تتنبأ بتلك الصيغ عن طريقة الملاحظة المباشرة عند الآخرين. وهذا يجعل مهمة علم النفس المعرفة مباشرة جداً – ونحن لا نستطيع ملاحظة الظواهر (الأحداث Event) العقلية الخاصة ولكننا نستطيع أن نستدل عليها من بعض أساليب السلوك. ولذلك فعالم النفس المعرفي يجب أن يتوصل (يستنبط) الطرق العليمة لملاحظة الحياة العقلية مباشرة، الأدوات (الوسائل) الرئيسية في علم النفس المعرفي تشتمل على تكنيكات تحليلية دقيقة من أجل تحليل الأنشطة العقلية إلى عمليات قابلة للقياس.

عمليات وأبنية العقل: Mental Processes and Structures

ويدور هنا السؤال حول ماذا يدرس ؟ وموضوع الدراسة في هذا الاتجاه هو الحياة العقلية للإنسان ، فعلم النفس المعرفي يدرس ما يجري داخل عقل الشخص عندما يقوم ببعض المهام – أي العمليات العقلية – وأسلوب الفرد في تخزين المعلومات واستخدامها في تجهيز هذه المهام ، أي المكونات أو "الابنية" العقلية.

فهم سلوك الإنسان : Understanding Human Behavior

والسؤال المطلوب معرفة اجابته هنا هو لماذا ؟ ويهدف علم النفس المعرفي أعطاء وصف واضح ودقيق للمعلومات والأحداث الداخلية لكي نستطيع أن نفهم ونتنبأ بشكل أفضل بسلوك الإنسان.

على سبيل المثال : نحن ندرس العمليات العقلية المسهمة في حل مشكلة حسابية لكي نستطيع أن نفهم بشكل جيد لماذا ينجح بعض الأطفال ويفشل البعض الآخر في تعلم مبادئ الحساب؟

ويمكن وصف الخصائص الثلاث لعلم النفس المعرفي كما يلي :

- موضوعه الأساسي هو عقل الإنسان أو النشاط العقلي له.
- منهجية أو أسلوبه في البحث هو التحليل العلمي للعمليات والأبنية العقلية.
- وهدفه هو فهم السلوك الإنساني.

نبذة تاريخية عن نشأة علم النفس المعرفية.

يجب الإشارة إلى "وليم فونت" باعتباره مؤسس علم النفس العلمي ، وعنايته بتقوية نفوذ علم النفس من أجل تعميمه في أكثر من مجال. وعندما أنشأ (فونت) معمله في جامعة ليبزج بألمانيا عام ١٨٧٩م ، أنشأ معه مدخلاً جديداً سمى بالبنائية (Structuralism) وسميت البنائية بسبب سعيها لدراسة وتحليل المكونات المختلفة لشعور الإنسان. واقتنع "فونت" بقوة بأن الشكل الجديد لعلم النفس يجب أن يستعمل الطرق العلمية في البحث ، إلا أن التكنيكات التي أعتمد عليها فونت وتلاميذه كانت فقيرة للغاية ، فقد استخدموا طريقة الاستبطان – حيث يحاول الشخص القائم بعملية الاستبطان بمهارة وصف ما يحدث داخل رأسه عند القيام بالأداء على بعض المهام.

وقد واجهت طريقة الاستبطان ردود فعل قوية خاصة في أمريكا ، ومع بداية القرن العشرين ١٩١٠م أخذت تظهر حركة جديدة كرد فعل لبنائية "فونت" سميت هذه الحركة " السلوكية " تحت قيادة جون واطسون في أمريكا ، حيث أصبحت ذات سيطرة قوية في علم النفس ، مع حلول عام ١٩٢٠م. وكما حدث مع البنائية فقد صمدت ما يقرب من الثلاثين عاماً. وأدعى السلوكيين بأنه إذا أردنا أن نجعل علم النفس علماً قوياً

ومقبولاً، فمن الواجب تغيير طرقه واهتماماته، ولذا فقد استبعد منهج الاستبطان وأدخلت دراسات معملية أكثر دقة وضبطا. وقد رفض السلوكيون أيضاً موضوع دراسة الشعور بسبب غموضه وعدم وضوحه. واعتبروا السلوك فقط هو الموضوع المناسب للدراسة في علم النفس، وذلك لأن السلوك هو الذي يمكن ملاحظته ملاحظة مباشرة. وهكذا كان السلوكيون على صواب في تأكيدهم على دقة الطرق والأساليب ولكن ربما كانوا متعصبين جداً في رفضهم لدراسة العمليات العقلية " الوقائع العقلية ".

وجاء رد الفعل الثاني لتطوير بنائية (فونت) في أوربا وذلك في نفس الوقت الذي سيطرت فيه السلوكية على علم النفس الأمريكي وأطلق على هذا الاتجاه الجديد (علم النفس الجشتالتي) وعلى عكس السلوكية ، أبقى علم النفس الجتشالتي على العمليات والأبنية العقلية ، بل اعتبرت موضوع (أو مادة) الدراسة في علم النفس ، وعلى أي حال ، مثلما حدث في السلوكية فقد حاول علماء الجشتالت استخدام الطرق العلمية الدقيقة بشكل أكثر قوة من الاستبطان ، إلا أن الوسائل والأدوات العلمية الدقيقة التي يمكن أن تساعد على التحليل العلمي لم تكن متاحة في ذلك الوقت لعلماء نفس الجشتالت. ونتيجة لعدم قدرتهم على تطوير النظريات

والأساليب الدقيقة بالإضافة إلى ما أحدثته النازية في أوربا من تجميد للفكر ، فكانت نهاية علم نفس الجشتالت أمراً محتوماً. وكثير من علماء النفس يرون أن علماء نفس الجشتالت بمثابة رواد لعلم النفس المعرفي ، فقد سألوا نفس الأسئلة التي تسأل اليوم من قبل علماء النفس المعرفيين.

وأخيراً فالمدخل الرئيس الثالث لعلم النفس بدأ يتطور في أوربا أساسا كفرع من العلوم الطبية ففي بداية القرن التاسع عشر صارت الأمراض العقلية موضوعاً للتحليل العلمي ، وقد سيطر (فرويد) على هذا المجال – وكانت وجهة نظر فرويد بمثابة ثورة حقيقية وذلك لأنه أعتقد أن مسببات السلوك الإنساني الحاضر تعود إلى شيء حدث للمريض في الماضي ، وقد سمي ذلك النموذج بالنموذج الطبي للاعتقاد بوجود سبب معين للمرض يمكن تحديده كما يحدث في الأمراض العضوية. وقد أدى عمل فرويد إلى تطوير نظرية التحليل النفسي التي حاولت أن تقوم بوصف الميكانيزمات التي تقع وراء المشاعر والانفعالات الإنسانية.

وفي الخمسينات من هذا القرن تقريباً كان الوقت مناسباً للتغيير ، حيث بدأت تضعف سيطرة السلوكية على علم النفس في أمريكا وذلك بعد مرور ثلاثين عاماً من السيطرة ، كما ضعفت التحليلية والجشتالتية في أوربا ، وكان لقدوم عصر الاليكترونيات دوراً رئيسياً في ذلك

الضعف بسبب الوسائل التي تم اكتشافها وتطويرها خاصة الكمبيوتر (أو الحاسوب) الذي كان ذا أثر عميق على علم النفس.

ومع أواخر الخمسينات كان علم النفس قد تأثر بالأفكار التي شاعت في ثلاثة مصادر على الأقل. المصدر الأول منها هو تطوير الحاسب ، والإحساس بإمكانياته وقدرته على القيام بالوظائف العقلية التي يقوم بها الإنسان فهو يستطيع أن يتعلم ، وأن يختزن المعلومات وأن يتذكرها ، وأن يعالج المعلومات ، ولقد كان للمقالات التي كتبت في ذلك الوقت مثل مقالات " سيمون وزملاؤه " دور هام ، لتمهيد الطريق في إعادة صياغة المشكلات القديمة لعلم النفس بلغة مماثلة لما يحدث في الحاسب. وقد أدى ذلك إلى جعل الاهتمام بالعمليات والأبنية العقلية الداخلية أمراً مقبولاً بل وضروريا وذلك بسبب إمكانية تحديد تلك العمليات إذا ما استخدمت لغة الحاسب.

والمصدر الثاني كان في مجال الدراسات اللغوية ، فقد حدث تحول تدريجي يبتعد عن النظريات السلوكية ويقترب من تحليل العمليات والأبنية التي تقع وراء فهم وإنتاج لغة الحديث ، وقد ظهر ذلك التحول جلياً في كتاب " التحليل النحوي" لتشومسكي عام ١٩٥٧ ، ذلك الكتاب الذي قدم تحليلا معرفياً للسلوك اللغوي.

المصدر الثالث الذي أثر في مسيره علم النفس في ذلك الوقت يتمثل في أعمال بياجية عام (١٩٥٤) ، حيث ركز بياجية على نمو العمليات والابنيه الداخلية والتي تقع وراء التغيرات النمائية في سلوك الإنسان.

وقد كان لجهود العلماء في الميادين الثلاثة السابقة – مدخل سيمون في ميدان الحسابات ، ومدخل تشومسكي في ميدان علم النفس اللغوي ومداخل بياجيه البيولوجي – دوراً هاماً وناجحاً في وصف العمليات والابنية المعرفية الداخلية مما أدى إلى تأثر الاتجاهات التقليدية في علم النفس وظهور أفكار جديدة وقوية ، ففي عام (١٩٦٥) قام (برونر) وزملاؤه بإيجاد تفسير معرفي للاستراتيجيات المتضمنة في تعلم المفاهيم. وفي عام ١٩٦٠ ظهر كتاب (ميلر وزملاؤه) ، بعنوان " خطط وأبنية السلوك"، وقد أعطى ذلك الكتاب بديلاً لسيكولوجية(المثير– الاستجابة) وهنا بدأت الثورة المعرفية عملها وتدور الفكرة الرئيسية في هذا الكتاب حول وجود طريقتين للنظر في السلوك: الأولى هي مدخل(م ⟵ س) السلوكي إلى القول بأن الوحدة الأساسية للسلوك تكون باقتران المثير بالاستجابة. والمدخل الثاني : يقول بأن وحده السلوك عبارة عن خطه أو نظام ما لتوليد السلوك بصورة مشابهة لأنظمة التغذية

الراجعة المستخدمة في الحاسب ، وبمعنى آخر فالسلوك ينتج عن طريق مجموعة من العمليات العقلية والاختبارات التي تتم على البيئة ، ولـيس الاقتصار على مجرد الارتباط بمثير بيئي معين ، وهكذا يتحول الإنسان من مجرد مستجيب للمثير (في السلوكية) إلى مجهز فعـال للمعلومـات (في الاتجاه المعرفي).

مسلمات علم النفس المعرفي :

يسلم علماء النفس المعرفي بأن العمليات المعرفية عمليات منظمة بطبيعتها ويمكن كشف طبيعة هذه العمليات وماهيتها ، ولكـنهم يتبنـون مجموعة أخرى من المسلمات في مقدمتها المسلمة الخاصة بالاسـتبطان والتي مؤداها أن الاستبطان – أي تمعن الفرد في أفكاره الذاتية / الداخلية – يمثل طريقة محدودة لتحليل السلوك الإنساني ، حيث يـصعب علـى الفرد أن لم يكن من المتعذر بالنسبة له أن يستبطن ذاته بشأن كثير مـن العمليات العقلية.

وترى المسلمة الثانية أن النظريات فـي ميـدان علـم الـنفس المعرفي وما يجري في نطاقه من بحوث ودراسات ينبغـي أن تـصدق على حياتنا من خلال تفاعل الفرد مع بيئته والوسط الـذي يعـيش فيـه ويمارس دوره من خلاله – بمعنى ضرورة أن تساعد هذه النظريـات و

تلك البحوث في تفسير وقائع وأحداث الحياة اليومية التي تجري خـــارج المعمل ، فكثيراً ما يعمد العلماء إلى استخدام إجراءات بسيطة في المعمل على نحو يسمح لهم بإمكانية عزل العوامل الهامة والتعامل معهـــا كـــل على حده. إلا أن هذا الوضع ينطوي على عديد من المخاطر المحتملة ، لعل من أبرزها اصطناعية المواقف والإجـــراءات المـــستخدمة وعـــدم وضوح علاقاتها بالمواقف الحياتية الطبيعية.

وهذا مؤداه أن الملاحظات والمبادئ المـــشتقة مـــن البحـــوث والدراسات المعملية لا يمكن تعميمها بالنسبة للمواقف الطبيعية وهذا أمر مرغوب فيه حيث أن العلماء يهدفون إلى اكتشاف وتحديد المبادئ التـــي تبدو فعالة ومؤثرة وذات قابلية للتعميم بقدر الإمكان. ولا شك أننا جميعاً نريد علماً يلقى مزيداً من الضوء على ما نعيـــشه يوميـــاً مـــن وقـــائع وأحداث، ويعيننا على تغيير هذه الوقائع والأحداث نحو الأفضل. ويمكن تلخيص المسلمات التي يساهم بها علماء النفس المعرفي فيما يلي:-

١- يجب على علماء السلوك دراسة العمليات العقلية مثـــل التفكيـــر والإدراك، والذاكرة، والانتباه، وحل المشكلة.

٢- يجب أن يسعوا إلى اكتساب معلومات وثيقة عن كيفية عمل تلـــك العمليات وكيفية تطبيقها في الحياة اليومية.

٣- يجب استخدم الاستبطان غير الشكلي، بصفة خاصة لتنمية الشعور الحدسي، مع استعمال الطرق الموضوعية لتعزيز وتأكيد مثل هذا الشعور، حيث يفشل الاستبطان التقليدي وحده في القيام بهذه المهمة.

وهكذا يجمع علم النفس المعرفي بين الحركة الوظيفية وعلم النفس الجشتالتي والسلوكية.

الوسائل والأدوات المستخدمة في ميدان علم النفس المعرفي:

يدين علم النفس المعرفي المعاصر لفونت في اهتمامه بدراسة الحياة العقلية للإنسان ، كما يدين أيضاً الجشتالت ، ففي حين طرح فونت وتلاميذه أسئلة هامة ولم تسعفهم الأدوات للإجابة عليها ، حيث صاغ الجشتالت عدداً من النظريات والأسئلة الهامة التي تهتم بالحياة العقلية للإنسان. غير أن ما فعله البنائيين و الجشتالت يقتص فقط على تقديم النظريات غير الواضحة وأهملت تقديم الوسائل التحليلية الدقيقة. وعلم النفس المعرفي مدين حتى للسلوكيين والتحليليين ، وأخيراً فعلم النفس المعرفي يجب أن تكون لديه القابلية لأن يذهب إلى ما بعد النظريات التي تهتم بالعمليات المعرفية ، وأن يهتم بالجانب غير العقلي في الحياة الإنسانية ، ودون أن يفقد مطالب السلوكية من حيث الاعتماد على

الملاحظات العلمية واستخدام أساليب وطرائق قابلة للقياس. والآن ما هي الأدوات التي يستخدمها علم النفس المعرفي لتعطيه هذا النجاح المتجـدد في الاهتمام بالعمليات المعرفية؟ يمكن تلخيص الأدوات والوسائل التـي يستخدمها في الوسائل الأربع التالية :-

١-تحليل نماذج تجهيز المعلومات :

Analysis of the information Processing system

فالناس يشبهون الحاسب في تناول كلاهما للمعلومات والتعامل معها ، وتوليد (إنتاج) بعض الاستجابات الملائمة لغرض معين ، فالحاسب مثلاً يمكنه أن يعمل عدة أشياء والناس كذلك ، ويمكننا وصف العمليات التـي تحدث داخل عقل الإنسان ويستخدم نفس المصطلحات التي تـصف بهـا العمليات التي تحدث داخل الحاسب.

وعلى ذلك فالوسيلة الرئيسية في ميدان علم النفس المعرفي هـي ما يطلق عليه " نماذج تجهيز المعلومات" وتعتمد تلك النماذج على خطه الناس في تجهيز المعلومات. فالمعلومات تأتي مـن خـلال مـستقبلاتنا الحسية ، ونستخدم العمليات العقلية في التعامل معها وتحويلها ، ومـرة أخرى تطبق عليها عمليات عقلية أخرى ، وهكذا عدة مرات حتـى يـتم تجهيز المخرجات في مخزن الذاكرة ، أو نقوم بإنتاج سلوك ما. وتهـتم

نماذج تجهيز المعلومات بسلسلة العمليات أو الإجراءات المعرفية التي يستخدمها الشخص في التعامل مع الموقف المعطى له مع المماثلة بلغة الحاسب أثناء وصفها وتحليلها.

٢-تحليل العمليات المعرفية : Analysis of Cognitive processes

بالإضافة إلى النموذج العام لتجهيز المعلومات ، يوجد أكثر من تكنيك نوعي أو خاص لشرح ما يحدث في رأس الشخص عندما يتعامل مع مهمة معطاة. على سبيل المثال : ما هي الإجراءات التي يقوم بها الأطفال في عقولهم عندما ينتهون من تعلم درس القسمة المطلوب كي يكتسبون بعض الإجراءات المعرفية التي لم يكونوا قد اكتسبوها من قبل؟ ويشرح علم النفس المعرفي التكنيكات الدقيقة لما يمكن أن يحدث للمعلومات الجديدة وبشكل عام يتم تحليل التكنيك المختار لشرح أي مهمة عقلية مثل حل مسائل القسمة المطولة ، بالملاحظة الدقيقة والتساؤل عن كيفية قيام الشخص بالحل ، وبتحليل العملية للأجزاء الصغيرة التي تتكون منها وعندئذ نختبر نموذج العملية الذي أجريناها مرة أخرى بالسلوك الفعلي للشخص.

٣-تحليل الابنية المعرفية: Analysis of Cognitive structure

كانت الفكرة في الأسلوب السابق – تحليل العمليات المعرفيـــة – هي زيادة معلوماتنا حول شرح النموذج المعرفي وزيادة معارفنا حـــول الكيفية التي يتم بها تجهيز بعض العمليات ، كالعمليات الحـــسابية مـــثلاً. هناك بعض الموضوعات التي تحتاج إلى تكنيكات نوعية مغايرة لما سبق كما في حالة القصة مثلاً أو بعض المعلومات الخاصة الأخـــرى ،هـــذه المعارف التي تصاغ في صورة لفظية تحتاج إلى نوع آخر من التكنيكات في تجهيز المعلومات.

٤- تحليل الاستراتيجيات : Analysis of strategies

الوسيلة الرابعة في علم النفس المعرفي تشمل فحص التكنيكات التي يستخدمها الناس في السيطرة على مختلف المعارف التي يمتلكونها ، مثل هذه التكنيكات تعرف بالخطط المعرفية أو الاستراتيجيات المعرفية ، ويحاول علماء النفس المعرفيين اكتشاف الاستراتيجيات التي يـــستخدمها الناس عندما يعطون مسائل أو مشكلات معقده ، ويسألونهم عن وصـــف عمليات التفكير التي يقومون بها ، ويحاولون تقويم الجمل الدقيقة التـــي تصف تلك الاستراتيجيات ، وبعد ذلك يختبرون نمـــاذج الاســـتراتيجيات مرة أخرى بالأداء الفعلي للأشخاص وواحد ممن نماذج الاســـتراتيجيات الشهيرة يعرف بإستراتيجية " معاني – نهايات – تحليل ".

Means – ends – analysis